



**Mounir Akasbi.- *Al-‘imāra al-‘askariyya bifās ‘abra at-ttārīkh* (al-Dār al-Baydā: Ifriqiyya al-Sharq, 2015) 232p.**

منير أقصبي.- العِمارة العسكِرِيَّة بفاس عبر التاريخ (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2015)، 232 ص.

أصدر الباحث منير أقصبي سنة 2015 كتابا بعنوان: العِمارة العسكِرِيَّة بفاس عبر التاريخ، عن دار النشر إفريقيا الشرق. والمؤلف باحث يزوج في تكوينه الأكاديمي بين التاريخ وعلم الآثار، فهو حاصل على الدكتوراه في التاريخ والآثار الإسلامية من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، وعلى دبلوم الدراسات العليا في الآثار من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط. أما الكتاب موضوع هذا العرض، فهو مؤلف من 232 صفحة، يتوزعها تقديم وباب تمهيدي، ثم ثلاثة أبواب، تليها خاتمة وملحق وببليوغرافيا في الأخير.

أكد الباحث في التقديم على المؤهلات الجيوستراتيجية لموقع مدينة فاس، والتي دفعت بالقائمين على تدبير شؤونها لتحسينها وزيادة في مناعتها، وهو ما تردد صداه في الكتابات الإخبارية من العهد الإدريسي إلى العهد العلوي، بل إن قسما كبيرا من التحصينات ما يزال قائما إلى يومنا هذا، على الرغم من اختفاء بعض أجزائها وانثار معالمها. أما الكتابة الإسطوغرافية الحديثة، فقد غاب عنها الاهتمام بالعمارة الحربية في المغرب عامة وفاس على وجه التخصيص، باستثناء بعض الإشارات العرضية ضمن دراسات عامة عن تاريخ العمارة في المغرب. ولجميع هذه الأسباب، اتخذ المؤلف المباني العسكرية بمدينة فاس موضوعا لهذه الدراسة، محاولا تحديد خصائصها وملامح تطورها، بغية الإسهام في تطوير الكتابة التاريخية عن العمارة العسكرية المغربية التي ما زالت في مرحلة التأسيس، خلافا للدراسات عن العمارة الدينية والمدنية. وقد استند في هذه المهمة على المصادر الإخبارية والدراسات الحديثة والعمل الميداني، كما استفاد من علمي الطبوغنيميا والآثار في عدة مواضع لاستكمال حلقات البحث.

تطرق الباحث في الباب التمهيدي إلى مجموعة من القضايا المتصلة بالعمارة العسكرية، كالمعنى اللغوي والاصطلاحي للمنشآت العسكرية، وتاريخ ظهورها وتطورها بالعالم الإسلامي، وخصائصها، ومظاهر تطورها بالمغرب عامة وفاس خاصة، كما قدّم لمحة عن التحصينات العسكرية الإسلامية بالمغرب، مثل المباني العسكرية الإدريسية [البصرة وحجر النسر]، والقلاع المرابطية [قلعة أمركو، قلعة تاسغيموت وقلعة النصراني]، والتحصينات الموحدية [أسوار تازة، أسوار تينمال ورباط تيط]، والتحصينات العسكرية المرينية [أسوار فاس الجديد وأسوار شالة]، وأبراج القرن السادس عشر الميلادي وحصناته، إضافة إلى العمارة العسكرية العلوية [قصبّة مكناس]. وتلت ذلك، قراءة في المصادر والمراجع المعتمدة، إذ تميزت المصادر حسب المؤلف بالكثرة والتنوع، خاصة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، حيث أصبحت فاس محط اهتمام عدد وافر من الكتاب، كابن أبي زرع وابن الأحمر. أما الحوالات الحبسية المرينية والسعدية والعلوية، فقد اعتبرها المؤلف مفيدة في التعرف على الأبواب الحضرية وضبط استعمال أسماؤها. أما الدراسات الحديثة التي اهتمت بالعمارة العسكرية بالمغرب فقد قسمها إلى قسمين يرتبطان بمرحلتين تاريخيتين، الأولى مرحلة ما قبل الاستقلال وهي فترة بداية ازدهار الدراسات حول العمارة عامة ومنها العمارة العسكرية، ثم مرحلة ما بعد الاستقلال ثانياً، وهي تمثل فترة تراجع الدراسات في الموضوع مقارنة بالفترة السابقة لها.

وانتقل الباحث منير أقصبي مباشرة بعد ذلك، للقيام بعملية جرد المباني العسكرية لمدينة فاس من خلال المصادر المكتوبة، ثم من خلال البحث الميداني. فتوصل من خلال العملية الأولى إلى مادة تاريخية مهمة عن الأسوار والأبواب، كأسمائها والتغيرات التي طرأت عليها إثر عمليات الهدم وإعادة البناء المتوالية منذ العصر الوسيط. أما البحث الميداني، فقد استفاد منه في متابعة التحولات التي عرفتتها تحصينات فاس البالي منذ عهد الناصر الموحد إلى عهد سليمان العلوي، خاصة منها التحولات المرتبطة بعمليات البناء والتوسيع والهدم وإعادة البناء. وقد نبّه في هذا الصدد إلى ما آلت إليه أجزاء مهمة من الأسوار والأبراج والقصبات من تدهور جراء الإهمال والاستغلال البشري غير القانوني. ومن جهة أخرى، أكد الباحث أن فاس الجديد حافظ على منشآته العسكرية المرينية والإضافات السعدية والعلوية بخلاف فاس البالي.

أما الباب الثاني من الكتاب، فقد خصّصه الباحث لوصف المباني العسكرية القائمة بمدينة فاس وتاريخها. فتحدث بتفصيل عن امتداد الأسوار الموحدية والمرينية والعلوية، ومواد بناءها، والأبواب التي تخترقها، كما قدّم وصفاً معمارياً وهندسياً للأسوار

والأبواب، والتغيرات الطارئة عليها مع تحديد الأقسام المستحدثة والمواد الأصلية المستخدمة في البناء والحالة الراهنة، مُدْعَمًا كل ذلك بتصاميم وصور فوتوغرافية حديثة ملتقطة بعدسته. كما تطرق للحديث عن الأبراج المتبقية في مدينة فاس كالبرج الشمالي، والبرج الجنوبي، و برج بوطويل، و برج سيدي بونافع. ثم تلى ذلك تقديم وصف معماري دقيق لقصبات الشرادة وفيلالة والنوار ودار الدبيغ والريافة.

وانتقل الباحث في الباب الثالث إلى ضبط الخصائص التاريخية والعمرانية لمباني فاس العسكرية، فذكر في أول فصل من فصوله بالموقع المهم لمدينة فاس في تاريخ المغرب، وبحرص حكامها على تحصينها وتأمينها من التهديدات الخارجية، مؤكداً في الآن نفسه على كون هذه التحصينات العسكرية لم تكن موجهة في رُمتها لحماية المدينة من الأخطار الخارجية، فقد استخدمت أيضاً للفصل بين المجال الحضري والريفي، ومراقبة أهل فاس وضبط تمرداتهم المتكررة. كما بين الظروف التاريخية التي استدعت إنشاء التحصينات والأهداف المتوخاة منها، كضمان استقرار شمال وشرق المغرب، وتوفير حامية مستعدة لنجدتها وضمان استقرار المدينة. وحاول المؤلف توضيح أهمية الطوبونيميا في البحث عن مواقع البناءات المندثرة بشكل خاص، موضحاً الصعوبات التي يطرحها ورود اسمين لبنانية واحدة في المصادر، والتحريف الذي قد يطال الأسماء الأصلية، وعدم حمل بعض المنشآت العسكرية كالأبراج السعدية لأسماء محددة، إضافة إلى ارتباط أسماء الأبواب بشخصيات تاريخية دُفنت قربها. وقد نبّه الباحث في هذا الصدد على تميّز أبواب فاس عن أبواب بعض المدن الأخرى، من خلال عدم حملها لأسماء الجهات المفتحة في اتجاهها. كما حدّد بعض أدوار المنشآت العسكرية [الأسوار - الأبواب - القصبات] ووظائفها، كالفصل بين الحياة الحضرية والريفية، وإبعاد المصابين بالأمراض المعدية خارج سور المدينة، ومساهمة الأبواب في تهيئة شبكة المحاور الحضرية الرئيسية. وانتهى في هذا الباب إلى وضع تصور شامل لخصائص المنشآت العسكرية على المستوى المعماري، ومسار تطورها من حيث الأشكال والعناصر المعمارية المكونة لها مثل جسم الأسوار، أبراج المراقبة، ممرات الجند، الشرفات، الأبواب، الباستيونات والقصبات، كما قام بجرد لمواد بنائها وزخرفتها.

وختم الباحث دراسته بتلخيص لمضامين الأبواب الثلاثة، موضحاً آفاق توظيف دراسته، والنتائج المتوصل إليها في تصنيف العمارة العسكرية المغربية، مؤكداً في الآن نفسه على أن محاولته ما هي إلا محاولة لجرد ودراسة ما بني بفاس من منشآت ذات دور عسكري، في انتظار إنجاز حفريات أثرية بالمدينة العتيقة، وظهور نصوص تاريخية جديدة.

ولا يسعنا في ختام هذا العرض لكتاب متميز إلا أن نقدم بعض الملاحظات العامة، منها ما هو مرتبط بالبيولوجيا الجغرافية المعتمدة، ومنها ما يتعلق بمضمون الكتاب. ففيما يخص العنصر الأول، تُظهر اللائحة التي اعتمدها الباحث بشكل جلي حالة البحث في العمارة العسكرية بالمغرب، وهو ما تعكسه ضائقة الأبحاث في الموضوع، حتى أن بعض المواقع ما زلنا نعتمد في وصفها وتأريخها على أبحاث أولية أنجزها باحثون في زمن الحماية خلال خمسينيات القرن الماضي، كما هو الحال بالنسبة لقصبة أمركو وقصبة زاكورة. أما فيما يخص الملاحظات المتعلقة بالمضمون، فيلاحظ أن الباحث اهتم بأبواب فاس أكثر مما اهتم بغيرها من المنشآت العسكرية، ولعل ذلك راجع لإنجازه في وقت سابق لدراسة عن أبواب فاس العتيقة، فالمحاور المخصصة لدراسة الأبواب إلى جانب الصور الفوتوغرافية والتصاميم المتصلة بها مهيمنة على الكتاب وإن لم يكشف عن دورها العسكري، مقابل غياب شبه تام للوصف المعماري والصور والتصاميم الخاصة ببقية المنشآت. كما أهمل المؤلف دراسة العمارة العسكرية البرتغالية والإسبانية بالمغرب، على الرغم من تأثيرها العميق على العمارة المغربية، وتفسيرها للكثير من التحولات التي طرأت على نظيرتها المغربية، خاصة منها العمارة السعدية والعلوية. في المقابل، يُسجل للباحث عدم توانيه عن طرح الأسئلة والإشكالات التي لم تمكنه المعطيات المتوفرة من الإجابة عليها، وإن كان يبخل في بعض الأحيان على القارئ بتقديم الأدلة النصية أو المادية لبعض الاستنتاجات والتفسيرات البسيطة التي قدمها في الكتاب، كتفسيره تسمية باب حصن سعدون بـ "وجود حصن يفضي له يرتبط باسم سعدون، وهي شخصية وجدت غالباً في ذلك المكان إبان بناء أسوار فاس الإدريسية"، أو تعليقه تسمية باب الجياف بهذا الاسم لأنه يطل على مقبرة اليهود، الذين "كان يطلق عليهم عامة المسلمين اسم الجياف [جمع الجيفة]". وفضلاً عن ذلك، لم يقدم المؤلف توضيحات بخصوص بعض المصطلحات المعمارية الدقيقة كالشرفات والإفريز والتصميم المحرود. ونشير أيضاً لوقوع لبس في التعبير أو ما شابه ذلك، عندما حاول الباحث التأسيس لتقنية القوارجة الحربية التي اتخذها المرابطون بفاس، فقد سجّل استعمالها في الأندلس منذ القرن VIIIهـ/ XIVم، حين قال: "والظاهر أن أصل هذا البناء [سور القوارجة المرابطي] مستوحى من الأندلس، ومن الراجح أن صناعاً قدموا من هناك لإنشاء هذا البناء العسكري". فكيف يمكن أن يستوحى المرابطون على عهد علي بن يوسف بن تاشفين (537-500هـ/ 1143-1107م) تقنية لم تظهر فعلياً إلا مع القرن XIVم في الأندلس؟

لوبنى زبير

طالبة دكتوراه جامعة القاضي عياض، مراكش